﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنجاءٌ من مخاطرِ البحار وتأمينٌ في البراري والأمصار

بعدَ أنْ بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ أسبابَ جُحودِ الكافرينَ نِعَمَ اللّه عليهم بصفةٍ عامّة، ونعمةَ الإنجاء من مخاطرِ البحار بصفةٍ خاصّة، ووضَّحت أنّهم سيعلمونَ عاقبةَ ذلك ويندمونَ عليه، تأتي هذه الآيةُ لتذكّرَهم بنعمةِ الأمنِ التي يَرفُلون فيها؛ بسبب الحرمِ الّذي يَعيشونَ بجوارِه مُطمئنّين، في حين أنّ غيرَهم يُتخطَّفونَ مِن ديارهم، ويَقتُل بعضُهم بعضًا، ولا يأمنونَ على أنفسهم ولا على أموالهم، ومع هذا الإنعامِ العظيم ترى المشركينَ يعبدونَ الأصنام، ويكفرونَ بربِّ العالمين!.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَمًا﴾: (حرم) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَنْعُ والتَّشْديدُ، فالحَرامُ: ضِدُّ الحَلالِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَحَرَمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: 95]...، والحَرَمانِ: مَكَّةُ والمَدينَةُ، سُمّيا بِذَلِكَ لِحُرْمَتِهما، وأنَّهُ حُرِّمَ أنْ يُحْدَثَ فيهما أوْ يُؤْوَى مُحْدِثٌ[1]، والحَرَم: حَرَمُ مكة وما أحاطَ إلى قريبٍ من الحَرَم، قد ضُرِب على حدودِه بالمنارِ القديمةِ التي بيّن خليلُ اللّه ﷺ مشاعِرَها، وكانت قُريشٌ تعرفُها، ويعلمونَ أنَّ ما دونَ المنار إلى مكّة حَرَمٌ، لا يَحِلُّ صيدُهُ، ولا يُقطَعُ شجرُه، وما كانَ وراءَ المنار فهو من الحِلِّ، يحِلُّ صيدُهُ إذا لم يكن صائدُه مُحْرِمًا[2]، والمعنى في الآية: جعلَ اللّهُ مَكَّةَ بلدًا آمِنًا مَصونًا يحرمُ فيه القتالُ بل التعرُّضُ للمَصيد فيه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حرم).

2) ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ (خطف) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، وهوَ اسْتِلابٌ في خِفَّةٍ، فالخَطْفُ الاسْتِلابُ، تَقولُ: خَطِفْتُهُ أَخْطَفُهُ، وخَطَفْتُهُ أَخْطِفُهُ، وبَرْقٌ خاطِفٌ لِنورِ الأَبْصارِ، قالَ تَعالَى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: 20][1]، والخَطْفُ والاختطاف: الاختلاس بالسّرعة، يقال: خَطِفَ يَخْطَفُ، وخَطَفَ يَخْطِفُ، وقُرِئَ بهما جميعًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: 10]، وذلك وصفٌ للشّياطين المُستَرِقَةِ للسَّمع، قال: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الحج: 31]، ومعنى قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 67]، أي: يُقتَلون ويُسلَبون[2].

3) ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ (بطل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ذَهابُ الشَّيْءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه، يُقالُ: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطولًا، وسُمّيَ الشَّيْطانُ الباطِلَ؛ لأَنَّهُ لا حَقيقَةَ لأَفْعالِه، وكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ فلا مَرْجوعَ لَهُ ولا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ[3]، والباطِلُ في العموم: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عندَ الفحصِ عنه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقد يقالُ ذلك في الاعتبار إلى المَقال والفِعال، يقال: بَطَلَ بُطولًا وبُطْلًا وبُطْلانًا، وأَبْطَلَهُ غيرُه، قال: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: 118]، وقال أيضًا: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71][4]، ومعنى الباطِل هنا: هو الشِّرْكُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يتحدّث اللّهُ عن نعمةٍ من نعمِه تعالى على أهلِ مكة بصفةٍ خاصّة، وهي نعمةُ الأمنِ في الأنفُس والأموال والأولاد، التي

نعمةُ الأمنِ تستوجبُ التوحيد والشّكرَ، لكنّها تُقابَل بالجحودِ والكُفر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطف).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (خطف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (بطل).

يَرفُلون فيها ويَتمتّعون بها، بسبب مُجاورتهم لبيتِ الله الحرام، الذي اختصَّه الله واختصَّ المكانَ الَّذي يقع فيه بالأمن والتّحريم، في حين أنّ النّاس في غيرِ هذه البُقعة يُتخطَّفون مِنْ ديارهم، ولا يأمنونَ على أنفسِهم ولا على أموالهم، ويبيّن النظمُ أيضًا أنَّ مشركي مكّةَ قابلوا هذه النِّعمةَ بالجحود والإنكار وعبادة الأصنام، ما مِن شأنه أن يُثير العجبَ من أفعالهم، ويوجبَ الفضيحةَ والتشنيعَ بصنيعهم.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى ذهاب عقولِ المشركين، وانسلاخِ أحلامهم؛ إذ آثروا الضَّلال على الهدى، والباطلَ على الحقّ، والشقاءَ على السَّعادة، وحيث كانوا أظلمَ الخلق، وإلى التعجُّب من تناقُضِ أحوالهم، وإلى إيقاظِ ضمائر المشركين بتنبيههم على نِعَمِ الله تعالى عليهم؛ لعلهم يشكرون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

دلّت الواوُ في جملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ على الاستئناف، والغرضُ منه بيانُ أنَّ الإنقاذَ من الغرقِ حالَ ركوبِ البحر والإيصالَ إلى البرِّ؛ ليس داعيًا للإشراكِ والاعتقادِ بأنَّ الخطرَ قد زالَ وانكشفَ، بل الواجبُ ومُقتضى العقلِ الاستمرارُ على التوحيد والإخلاص، واللّهُ تعالى قد جعلَ من مكّةَ بَرًّا تُحيطُ به الأخطارُ وبحارُ القتلِ والسّلب والاعتداء، فقد خلّصَكم الله من بحرِ الفتن والأعداءِ ببَرِّ الأمان المتمثِّل بمكّة، وكما كان الأجدرُ بالراكبين في البحرِ المتعرِّضين لأهواله أنْ يوحّدوا الله عندَ إنجائهم؛ فالأجدرُ بكم يا معشرَ قريش أنْ تشكروا اللّهَ الّذي جعلَ لكم مكّةَ أمنًا من الأخطار، وأنْ تعودوا لرُشدكم، فقد بانَ بهذا الاستئناف ارتباطُ

إقامةُ الحجّة على الكافرينَ بتحقيق الأمانِ الدائم بحرًا وبَرًّا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 389، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 635، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 156.

الآية بما سبقَها من آية ركوبِ البحر، التي مهَّدتِ الكلامَ للحِجاجِ وإثارةِ السُّؤال والتعجُّب من شِركهم!.

كما تَحْتَمِلُ (الواو) أنْ تكون حرفَ عطف، وقُدِّمتْ عليه الهمزةُ لاختصاصِها بتمامِ الصَّدارة، والمعطوفُ عليه محذوفٌ، تقديره: أزاغَتْ أعينُهم وعَموا ولم يَرَوا[1]، أوْ أنَّ المعطوفَ عليه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ لما اشتملتْ عليه تلك الجملُ من تقريعٍ على الكُفران[2].

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

إعـادةُ العقول الضالّة إلى جادّة الطريق

الهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ للاستفهامِ التقريري، الذي يَقصدُ إلى تنبيه مشركي مكّة وتقريرِهم بنعمةِ الأمن التي خصّهم اللّهُ تعالى بها دونَ غيرهم من الناس، بسبب جوارهم بيتَ اللّه الحرام؛ ليعملَ التنبيهُ والتقريرُ عملَهما في القلوب القاسيةِ، والعقولِ الضالّة، فيُعيداها إلى جادّة الطريق، وصواب السبيل، فهُم يَرَونَ ذلك ويَعلمونه، لكنَّهم لمّا استمرّوا في باطلهم كانوا كأنَّهم لا يرونَ ذلك ولا يَعلمونه، فسألَهم ليعترفوا بتلك النّعمة التي تناسَوها، وما حالُهم إلا كحالِ مَن نُجّيَ من البحر ووصل إلى البرّ فأشركَ، ويَحْتمِلُ أنْ يكون الاستفهام للإنكار[3]؛ إذ شأنُهم في الإشراك شأنُ مَن لا يشاهدُ ولا يعلمُ نعمةَ الأمن التي تحفُّهم، فينكرُ عليهم عدمَ المشاهدة والعلْم مع أنَّها ظاهرةٌ وواضحةٌ.

دلالة التّعبير بفعل الرّؤية:

الرّؤية مستعارة للعلم بتنزيلِ المعلومِ المعنويّ منزلةَ المشاهد المحسوس

الفعل: ﴿يَرَوْاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ يصحُّ أنْ يكون بمعنى الرّؤية البصريَّة، ويجوز أن يكونَ بمعنى: العِلْم، والمعنى: ألم يُشاهِدوا بأبصارهم، ويُدركوا بعقولهم تلك النِّعمةَ العظيمةَ،

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 22.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33 - 34.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

التي اختصّهم اللّه بها دونَ غيرهم ممَّن يَعيشونَ حولَهم، وتصلُ إليهم أخبارُهم؟! والذي يترجّحُ كونُ الرّؤيةِ مستعارةً للعلْم بتنزيلِ المعلومِ المعنويّ منزلةَ المشاهد المحسوس، كما أنَّ الغالب في الرؤية البصريّة تعديتُها إلى المفرداتِ دون الجمل وما ينزّلُ منزلتَها.

وجهُ التعبير بالفعل المضارع:

استحضارُ الصّورة يساعدُ على التفكير وحسن التصرُّف

عبَّر النظمُ الكريم بالفعل ﴿يَرَوْاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ مضارعًا؛ لما يمتاز به المضارع من الدعوة إلى تجديدِ الرؤية وتَكرارها، بالإضافة إلى استحضار الصّورة المُتحدَّث عنها كأنها ماثلةٌ مُشاهَدَةٌ، تراها العيون، وتتفكّر فيها العقول، فتعملُ عملَها في نفوس المخاطبينَ، وتدفعُهم إلى التفكير المُفضي إلى شكر اللّه سبحانه بالإيمانِ به والاعترافِ بنعمِه.

بلاغة المجاز الاستعاريّ:

تنزيلُ الخبر المعلوم منزلةَ المرئيّ بالعين

إذا كان فعل الرؤية في قوله تعالى: ﴿يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ مستعارًا للعلم، ففي التعبير به استعارة تَصريحيَّةٌ تَبَعيَّة، استُعير فيها فعل الرؤية للعلم، تنزيلًا للخبر المعلوم منزلة الخبر المشاهَد بالعين؛ للدلالة على تأكُّد حصوله، وتحقُّقِ وقوعه، ما يعني: أن الأخبار التي تصلُهم عن اقتتال الناس من حولهم، وسَفْكِهم دماءَ بعضهم، وانعدام الأمن على الأرواح والممتلكات في ديارهم، أخبارٌ حقيقيةٌ، لا شكَّ في حصولها ولا ارتيابَ في وقوعها، ولا يعني عدمُ حصول مثلِها في البلد الحرام أنّها لا تحصل في غيره من القرى والبقاع، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الكلامُ استعارةً مكنيّةً بتشبيهِ الجعلِ المذكورِ بالأمرِ المُشاهَد؛ إذ عمليّةُ الجَعْل لا تُرى بل تُدرَكُ وتُعلَمُ، ثمّ حذف وأُبقي من خواصّه الرؤية، "فقد جُعِلَتْ نِعْمَةُ أَمْنِ بَلَدِهِمْ كالشَّيْءِ الْمُشاهَدِ، فأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ رُؤْيَتِهِ"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

مرجعُ الضَّمير المرفوع:

العربُ كانوا يقتدونَ بأهل مكّةَ ويفعلونَ مثلهم

واوُ الجماعة في الفعل: ﴿يَرَوْاْ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ تعودُ إلى أهل مكّة، وهم الَّذين خصّهم اللّه بمجاورةِ بيته الحرام، وأنعمَ عليهم بنعم كثيرة، أعظمُها نعمةُ الأمن، وخُصّوا بالتذكير بهذه النعمة مِنْ بَيْنِ المُشْرِكينَ مِنَ العَرَبِ لِأَنَّهم قُدْوَةٌ لِجَميعِ القَبائِلِ، ألا تَرَى أنَّ أكْثَرَ قَبائِلِ العَرَبِ؛ كانوا يَنْتَظِرونَ ماذا يَكونُ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ، فلَمّا أسْلَمَ أهْلُ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ أقْبَلَتْ وُفودُ القَبائِلِ مُعْلِنَةً إسْلامَهُمْ![1].

غرض التأكيدِ:

اللّه تعالى هو الذي تولَّى بنفسه جَعْلَ مكة حرَمًا آمنًا

جاءَ قوله ﷻ: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مؤكَّدا بـ: ﴿أَنَّا﴾ في أوّله، ثمَّ بإسنادِ فعل الجَعْل إلى ضمير الحقّ بصيغة التعظيم: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ لتأكيد أنّ اللّه تعالى هو الذي تولَّى جَعْلَ مكةَ حرمًا آمنًا، وهو الَّذي وجّه الملائكةَ لوضع قواعد البيت فيها، وهو الذي بيَّن لإبراهيمَ عليه السلام مكانَ البيت، وهيَّأه له وقد كان غيرَ معروف، ثمَّ أمرَهُ ببنائه على تقوى من اللّه وتوحيدِه مع ولده إسماعيل، وأنّه سبحانه هو الَّذي قذفَ في قلوب الناس تعظيمَه وتحريمَه، وتعظيمَ المكانِ الذي يقعُ فيه وتحريمَه، وأنّ ذلك ما كان ليحصلَ شيءٌ منه لولا إرادةُ اللّه ومشيئَتُه، ما مِن شأنه أنْ يوجِبَ حمدَه وشُكرَه مخلصينَ له الدّين.

توجيه الاختلاف:

اختلافُ السّياقين وتناسبُ التعبيرين

عبّر البيانُ القرآنيُّ هنا بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، بينما عبَّر في سورة القصَص بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57]: والسرُّ في اختلاف تعبير سورة القصص أن النظم فيها يأتي جوابًا لكلام المشركين: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: 57]؛ ما يستدعي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 33.

الحديثَ المباشرَ عن التمكين من الحياة الآمنة، الَّذي يرونه ويراهُ غيرهم، إبطالًا لما يقولون ويتحدّثون، بخلاف السّياق في سورة العنكبوت الذي وقعَ عقيبَ الإشراكِ بعدَ النَّجاة من الغرَق؛ القاصدِ إلى تنبيهِ المشركين بتنعُّمِهم بالأمنِ والنَّجاة من الفتن المحيطةِ، في حين أنَّ غيرَهم من الناس خائفٌ مذعورٌ، وكأنَّهم لا يشاهدون هذا الإنجاءَ، ولا يعلمون به، فسياقُ (القصص) اقتضى إلقاءَ اللّائمة في على حالهم المؤدّي إلى المهالك، فنَبَّهَهُم إلى التمكين والإقرار والتثبيت والزعامة بلا مشاهدةٍ له، وسياقُ العنكبوت اقتضى عدمَ مشاهدةِ النجاة لهم بالبلد الحرام، فنَبَّهَهُم إلى ضرورة الرّؤيةِ والمشاهدة لتلك النعمة العظيمة وذلك التمكين والجَعْل.

الموقعُ الإعرابيّ:

قوله: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ جملةٌ فعليّةٌ في محلِّ رفعِ خبرُ (أنّ)، وفيها أُسندَ الفعلُ: (جَعَل) إلى ضمير الحقِّ المعظِّم نفسه (نّا)، وعُدّي فعلُ الجعل إلى مفعولين، أوّلُهما محذوفٌ لكونه مفهومًا من السّياق، تقديره: مكّةَ، والثاني: ﴿حَرَمًا﴾، وقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ صفةٌ للمفعول الثاني، والمعنى: جعلنا مكةَ حرمًا آمنًا، وفي هذا التركيب الفعليِّ إشارةٌ إلى أنَّ هذه النّعمةَ القديمةَ المتحققةَ لا دخلَ لهم بها أوْ في تحصيلها، فهي محضُ تفضُّلٍ عليهم، فقد هُيِّئَتِ مكَّةُ لهم واختارتها العنايةُ الإلهية؛ لتكون مكانًا مكينًا محصَّنًا بحصنٍ معنويٍّ، وهو ما ألقاه الله في قلوب العربِ من تقديسٍ للمكان وتعظيم له، من غير كسبٍ ولا بذلِ جهدٍ من المنعَّمين، وفي ذلك تمامُ النِّعمة وكمالُها.

كمالُ المنّةِ في تهيئةِ النِّعمة

نكتةُ الإسناد إلى ضمير العظمة:

في إسناد فعل الجَعْل إلى ضمير الحقّ سبحانه بصيغة التعظيم: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ تقويةٌ وتأكيدٌ لما سبق ذكرُه مِنْ أنّ الله تعالى هو الذي تولَّى تهيئةَ هذا المكان بعظمتِه، وتولَّى جعلَه آمنًا بقدرته، وهو الذي

جَعْلُ مكة حَرَمًا آمنًا نعمةٌ تستوجب شكرَ المنْعِم وإفرادَهُ بالعبادة

قذفَ في قلوب الناس تعظيمَه، وتعظيمَ الحرم الذي يقع فيه، وأنّ هذا ما كان ليتمّ لولا إرادة الله تعالى وتقديره، ما من شأنه أنْ يوجبَ على أهل مكة وغيرهم شُكرَه بالتوحيد والإخلاص[1].

نكتة التنكير والحذف:

الأمـن في مكة يَـعُـمُّ جميع المخلوقات

في تنكير المفعول الثاني ﴿حَرَمًا﴾ تعظيمٌ لمكة ورفعةٌ لشأنها[2]، حيث اختصَّها الله تعالى بذلك دون غيرها، وفيه أيضًا دلالةٌ على أنَّ تحريمَ القتل والإيذاء لا يقتصرُ على البشر الَّذين يُقيمون فيها، وإنَّما يتّسعُ ليشملَ الإنسان والحيوان والطيور والدوابّ والأموال، وكلَّ من يعيش في هذا المكانِ أوْ يأوي إليه، وبذلك تعظُم في نفس المتلقّي نعمةُ الإنعام به، ويفهمُ وجوبَ شكر المُنعم على كونه حرَمًا آمنًا، كما أفادَ حذفُ المفعول الأول إيجازًا أنّها معلومةٌ للقاصي والداني، حتى صار الحرمُ شعارًا لها وعلَمًا عليها.

فائدة النعت:

الأمـن في البلد الحرام لا يماثله أمنٌ في أيِّ مكانٍ في العالم

وَصْفُ المفعول: ﴿حَرَمًا﴾ بـ: ﴿ءَامِنًا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني: أنّه يحرمُ إيذاءُ مَن دخله وأوى إليه، أوْ تخويفُه[3]، وأوثرَ التعبير عنه بالاسمِ المشتمِل على حَرْفَي مدٍّ في أوّلِه وآخِره؛ للدلالةِ على بلوغ الأمن فيه مدىً لا حدودَ له، ولا يماثله فيه أيُّ بلد آخرَ في العالم، ما يعني: أنَّه لا يحصل فيه أيُّ نوع من الأذى أو الخوف على النّفس والمال، كما أن النعت مسبّب عن المنعوت؛ إذ الحرمُ يدلُّ على المكانِ الّذي ينبغي تعظيمُه ولا يحلُّ انتهاكُه والإيذاءُ فيه، فيكونُ وصفُه بالآمن بيانًا للمكان ونتيجة للتحريم، فهو لا يحلُّ انتهاكه فصارَ آمنًا، ولذا عدلَ النّظم عن (مكانًا آمنا) إلى ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ ليفيدَ تسبُّب الحرَميّة في وصف الأمن واقتضائه، وفي ذكر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 238.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 1/ 616.

النّعت اسمَ فاعل دلالةٌ على حدوث الأمنِ له على سبيل الاستمرارِ والحدوث، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه قد يُنتهكُ من الظّالمين والمتكبّرين والملحدينَ على سبيل النُّدرة.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

الشعورُ بالأمن في البلد الحرام يتجاوزُ الإنسانَ إلى المكان

في وصف الحرمِ بالآمن في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المفعوليّة، إذ الحرمُ والمكانُ لا يكونانِ آمنَيْنِ؛ لأنّ الإحساسَ بالأمن من صفاتِ الأحياء، وإنّما الحرمُ مأمونٌ، وفي وصف المكانِ به دلالةٌ على أنّ نعمة الأمنِ تتجاوزُ الإنسان إلى كلِّ مَن يعيشُ في مكة، أوْ يأتي إليها من البشر أوْ غير البشر، حتى ليُخَيّل إلى المتلقّي أنّ المكان نفسَه يُشعر بها من فرط حصولِها فيه، ومن فرط تحقُّقها على مرّ الأعوامِ والسِّنين[1].

معنى الواو في: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾:

الحياةُ بدون أمن تعيسةٌ مهما تَوافر فيها من النِّعَم والخيراتِ الأخرى

(الواو) في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ هي واوُ الحال، والجملةُ بعدَها حاليّةٌ، تدلُّ على أنَّ الناس الّذين يُقيمون خارجَ البلدِ الحرام، ويُحيطون به من كلِّ جانب، يعيشونَ في حالةٍ دائمةٍ الفزعَ والرُّعبَ والشعورَ بعدم الأمنِ على النَّفس أوِ المال وغيرهما، وهو شعورٌ يجعلُ الحياةَ تعيسةً، مهما توافر لأصحابِها من النِّعم والخيرات الأخرى، ونلحظُ في هذه الحال المبيّنة إظهارَ النّعمة في جعل البلدِ حرامًا؛ إذ اختصَّ الأمن بهم دونَ مَن سواهم، فلولا اقترانُ هذه الحال بما قبلَها لما كان للنِّعمة كبيرُ وقعٍ في نفوسِ المتلقّين.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ مادة وصيغة:

الناسُ في غير البلدِ الحرام يُتَخَطَّفون تَخَطُّفَ الطّير

اشتملَ قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ على فعلٍ مضارعٍ مبنيٍّ للمجهول، وهو يعني: القتلَ والسّلبَ كما سبق بيانُهُ،

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، دعاء الخليل في الذكر الحكيم مقاصده وأسراره، ص: 8.

وأوثر التعبيرُ بهذه المادّة دون: (يُقتَل) أوْ (يُسلَب)؛ لما يدلُّ عليه من حصولِ القتل والسَّلب بسرعةٍ فائقةٍ، وبطريقةٍ تُشبه تَخَطُّفَ الطَّير، ففي الفعلِ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ إذ شبّه القتلَ بالأخذِ الشَّديد والسَّريع تجسيدًا لعمليَّة القتل وإظهارًا لشدَّة القتلِ والغيلةِ، وفي الخطفِ أيضًا دلالةٌ على كثرة القتلِ وسرعة الإغارةِ بحيثُ لا يشعرُ المقتولُ بالقاتل وحركتِه، كما أنّه يحصلُ للنّاس أجمعين، لا فرقَ فيهم بين الصَّغير والكبير، والذَّكر والأنثى، والمقاتلِ وغير المقاتل، ويحصلُ كذلك في جميع الأوقات والأحوال، سواءٌ في ذلك أوقاتُ الحرب وأوقاتُ السِّلم.

ووجهُ اقتصار البيان على ذكرِ (تخطّف الناس) دونَ غيره من ألوانِ الفزع وصنوفه، مثلُ السّرقات، وهَتْكِ الأعراض، وسَبْيِ النِّساء، وأسْرِ الرّجال والأطفال، وهدم المنازل والبيوت، وإتلافِ الزّروع، وحرقِ الثمار أنّه أفظعُها وأشدُّها، ولأنَّ حصولَه دالٌّ على حصولِ ما دونه من بابِ أوْلى.

التخطُّفُ مستمرُّ الحصول حتى لا يُعيَّنَ فاعلُه

أوثر التعبيرُ بصيغةِ المضارع: ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ لما يمتاز به من الدّلالة على تجدُّد حصول التّخطّف للنّاس الّذين يعيشونَ حول البلد الحرام وما بعدَه، ما يعني: أنَّه لا يهدأُ ولا ينقطعُ، ولا يحصلُ في وقتٍ دونَ وقت، ويحدثُ بسببٍ وبغيرِ سبب، ولما يمتازُ به المضارعُ أيضًا من استحضارِ الصّورة المُتحدَّث عنها كأنَّها ماثلةٌ حاضرة، يبرزُ فيها الناسُ مذعورينَ خائفين، يتوقّعون القتلَ والتخطُّف في كلِّ مكان بينَ عشيَّةٍ وضُحاها.

وفي بناء الفعل: ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ لصيغة المجهول؛ دلالةٌ على أنّ القائمينَ به كثيرونَ مُتنوِّعون، ما يجعلُ الفزع من حصوله مُستمرًّا، لأنّه ربَّما يحصل من العَدوِّ، وربَّما يحصلُ من غيره، وربَّما يحصلُ ممّن يُشكُّ فيه، وربَّما يحصل ممّن لا يشكُّ فيه أو يُرتاب به، وهذا

المعنى لا يتحقَّق لو قيل: (ويتخطّفُهم الأعداء مِن حولهم)، ويمكن أنْ يكون سرُّ بناء الفعلِ للمجهول هو أنّ قصدَ البيان موجّهٌ إلى ذِكْر الفعلِ نفسه، بغضِّ النظر عن حصولِهِ من فاعلٍ معيّنٍ[1].

معنى التعريف بـ(أل) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

جنسُ البشر الّذين يعيشونَ خارج مكة يشعرونَ بالفزع وعدمِ الاطمئنان

(أل) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ هي التي للجنس، وتدلُّ على أنّ جميعَ مَن يُقيمونَ خارجَ البلد الحرامِ من النّاس يشعرونَ بالفزع وعدمِ الاطمئنان، سواءٌ منهم الأشرافُ وغيرهم، والرّجالُ والنِّساء، والأغنياءُ والفقراء، وهي حياةٌ بئيسةٌ مهما توافرَ فيها من نِعَمٍ.

معنى الجارّ في: ﴿مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾:

كلُّ ما عدا مكة غيرُ آمن

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ هي الابتدائية، الدالّة على أنَّ تَخطُّفَ الناس يحصلُ بدءًا بمَن حولَهم ليَمتدّ إلى كلّ الأماكن والقرى التي تقعُ حولَ البلد الحرام، وما بعدَ ذلك ممّن تصلُهم أخبارُهم وغيرهم، ولا يستثنى من ذلك بلدٌ من البلدان، أو مِصْرٌ مِن الأمصار، فقد "كانت العربُ حول مكّة يغزو بعضُهم بعضًا، ويتغاورونَ، ويتناهبون، وأهلُ مكّةَ قارّونَ آمِنون فيها، لا يُغْزونَ ولا يُغار عليهم مع قلّتِهم وكثرةِ العرب، فذكَّرهم اللّه هذه النعمة الخاصّةَ عليهم"[2].

الموقع الإعرابي للجارّ والمجرور:

اللـه تعالى قادرٌ على تغيير الأوضاعِ والأحوال

في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ نصبٍ حالٌ من ﴿ٱلنَّاسُ﴾، وأوثر التعبيرُ به لما يفيدُه من مُشاهدةِ أهلِ مكّةَ ما يحدثُ للناس حولَهم واطّلاعَهم عليه، ورؤيتَهم له رؤيةَ العين؛ ليحدثَ عندهم نوعٌ من المقابلة بينَ ما هم فيه من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 464.

أمنٍ وطمأنينة، وبينَ ما عليه جيرانُهم من هَلع وفَزع، ولو خلا منه البيانُ لما حدث ذلك، ولَما كان للامتنان به عليهم وجهٌ، ولمُطالبتِهم بشكره اعتبارٌ، والمعنى المرادُ أنّ "الّذي خرق العادة في فعل ذلك حتى صارَ على هذا السَّنن قادرٌ على أنْ يعكسَ الحال، فيجعل مَنْ بالحرم مُتَخَطَّفًا ومَنْ حولَه آمنًا، أوْ يجعلَ الكلَّ في الخوف على منهاجٍ واحد"[1].

بلاغة المقابلة:

الـضـدُّ يُـظـهـرُ حسنَه الضدُّ

في الآية مقابلةٌ بين أربعةِ معانٍ: اثنانِ منها في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ المشتمل على المكان وهو الحرم والوصف وهو الأمان؛ فيدلُّ على أنّ الناس في حرم الله مكّةَ آمنون، واثنانِ في قوله: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، المشتمل على المكان وهو ما حولهم من القرى والوصف وهو التخطّف، الدالِّ على أنّ الناس فيما حولَها خائفونَ مذعورونَ، وهي مقابلةٌ تُبرزُ عظيمَ نعمةِ الله على أهلِ مكّة، وتبيّن مدى شعورهم بالأمان والاطمئنان، في حين أنَّ غيرهم لا يأمنونَ على شيء، ولا يتلذَّذون بشيء؛ لأنهم محرومونَ من أعظمِ النّعَم وأهمِّها، وتَبيَّنَ من التقابلِ أهميّةُ العدول عن مكة إلى الحرم، المشعرِ بالمكان الذي لا يجوزُ انتهاكه شرعًا وعُرفًا، وأهميّةُ العدول عن (القرى) إلى (ما حولها) المشعرِ بأنَّ جميع ما حولَها بدون استثناء خائفٌ ومذعور، كما آثرَ النظم التعبيرَ عن (الأمن) بالاسم الدالِّ على حدوث ذلك الأمنِ بفضل الله تعالى، والتعبيرَ عن انعدامِ الأمن بالفعل ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ المُشْعِر بشدّة القتل وعِظَمِ المصيبة لتجدُّده واستمرارِه حتى يصعُبَ تعيينُ فاعلِه.

نكتة الوصل في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾:

الـتّـعـجـيـب مـن صنيعهم والتّشنيع بهم

جاء قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفًا بالفاءِ - الدالة على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.

التسبّب – على الاستفهام السّابق الدالِّ على الإنكار أيضًا، فيكونُ من عطفِ الإنكار المُسبَّب على المنكَر السّبب؛ إذ عدمُ رؤيتهم نعمةَ الأمان كانت سببًا في تبجيلِ الباطل، ولو رأوه رؤيةً علميّةً حقيقيّةً أدركوا أنَّ هذا الإمانَ من صُنع الله تعالى دون أصنامِهم الباطلة، إذ كانت تلك الأصنامُ معبوداتٍ للعرب المتخطَّفينَ ولم تمنعْهم من القتل، وتوالي الإنكارِ يؤدّي إلى التعجيبِ من حالهم بتوفير الله تعالى الأمنَ لهم إلا أنّهم يشركونَ به معبوداتٍ باطلةً، ويكفرون نعمةَ ربِّهم عليهم، ويَحْتَمِلُ أنّها عاطفةٌ ما بعدَها على محذوفٍ يُفهَم من السّياق، تقديره: أبَعْدَ هذه النّعمة الظاهرةِ المكشوفةِ وغيرها ممّا لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ يؤمنونَ بالصّنم أوِ الشيطان، وبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرونَ؟[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾:

مَـنْ يكفرُ نِعمَ الـلـه عـلـيـه يستحقُّ الإنكارَ والتوبيخ

الهمزة في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ للاستفهام الإنكاريّ، القاصدِ إلى تنبيهِ المتلقّين ولفتِ أنظارهم إلى المعنى الذي يريدُ البيانُ إيصالَه والتوجيهَ إليه، مع ما يفيدُه هنا من الإنكار على مشركي مكة وتوبيخِهم[2]؛ بسبب ما كانَ منهم من إيمانٍ بالباطل، وكفرانٍ بنِعَم الله التي لا حصرَ لها، بدلًا من حرصهم على توحيده سبحانه وشكرِها.

معنى الباء في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾:

أهـلُ الـبـاطـل شديدو التمسُّكِ والـتـقـلـيـد لباطلِهم

(الباء) في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الإلصاقَ، وفي التعبيرِ به دلالةٌ على أنّ مشركي مكّةَ مُتمسِّكونَ بعبادة الأصنام، مُصرِّون على الإيمانِ بها، على الرَّغْم من عَجْزها وعدمِ قدرتها على الإنعام بمثلِ شيءٍ من نعم الله تعالى، وهو أمرٌ في غاية الاستغرابِ والعجَب.

(1) البيضاوي: أنوار التنزيل: 4/ 200.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 464، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 479.

معنى التعريف في قوله: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

(أل) في (الباطِلِ) من قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ هي التي للجنس، وفيها دلالةٌ على أنّهم يؤمنونَ بكلِّ ما هو باطلٌ، ويهرعونَ إليه، ويكفرونَ بكلِّ ما هو حقّ، وينصرفونَ عنه وتفيد (أل) أنَّ ما هم عليه هو حقيقةُ الأمر الزّائل، الذي لا وجودَ ولا رصيدَ له من الحقيقة، فهم قد التصقوا بالوهم وعاشوا فيه واعتمدوه سندًا وحقيقةً، ويَحتمِلُ أنْ تكون للعهدِ، ويرادُ بالباطل الأصنامُ التي يشكرونَها من دون اللّه، ويعتقدونَ أنّها تنفع وتضرُّ من دون اللّه، وفي تسميةِ الصّنم (باطلًا) استعارةٌ تصريحيّةٌ، بجامعِ عدم الثبوتِ فيهما؛ إذ الصّنمُ لا ألوهيَّة له في نفس الأمر، كما أنَّ الباطلَ لا قيمةَ له في الواقعِ.

نكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

التشنيعُ بما فعلوا، وإبرازُ فظاعته وقُبحِه

قَدّم النظمُ الكريم الجارَّ والمجرور: (بِالباطِلِ) على الفعل: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ وهو في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به مقدّمٌ، والأصلُ أنْ يقال: (أيؤمنونَ بالباطل)؟ لإظهارِ مدى اهتمامهم بالأصنام، وحرصِهم على التمسُّك بعبادتها، ويمكنُ أنْ يكون التقديم لبيانِ تخصيصِهم الأصنامَ بالعبادةِ والتأليهِ من دون اللّه تعالى، وأيًّا كان الغرضُ؛ ففي تقديم الجارِّ والمجرور على فعل الإيمان إظهارٌ لكمال شناعةِ ما فعلوا، وإبرازٌ لفظاعته وقُبحه[1]، وبهذا عُرف سرَّ الإنكار الشّديدِ عليهم بالاستفهامِ المُتوالي، لأنهم خصَّوا الباطلَ بالإيمان، فلم يَجمعوا في إيمانِهم بين باطلٍ وحقٍّ، بل اقتصروا على المعتقدِ الباطل وكرِهوا الحقَّ؛ إذ الجحدُ دليلُ الكراهيةِ والبغضاء، فكانَ تقديمُ الجارِّ والمجرور محطَّ الاستفهام الإنكاريّ والتوبيخيّ على ذلك الفعلِ الشّنيع؛ إذ الخالقُ الجليلُ يُنعِمُ، وغيرُه وحدَه يُعبَد.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 47.

دلالة التَّعبير بالمضارع مادّةً وصيغةً:

المشركون يُصرّون على فعلِ عكسِ ما تفرضُهُ الفطرةُ السّويَّةُ

أوثِر التعبيرُ بصيغة الفعل المضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ لدلالتِهِ على تجدُّد إيمانهم بالباطل، وشدّةِ إصرارهم على عبادة الأصنام، كلَّما تجدَّدت نِعَمُ اللّٰه عليهم، وكثُرتْ أفضالُه التي اختصّهم بها، وهو أمرٌ على العكس ممّا يجبُ أن يكون، وعلى الضدِّ ممّا تفرضه الفطرة السويّة، كما آثرَ النظمُ اختيارَ مادّة الأمن أيضًا لمقابلةِ جعلِ مكّة حرَمًا آمنًا، فقد أمَّنَهم اللّٰه ووقاهم شرَّ المعتدين، ومع ذلك لم يُؤمنوا به، بل آثروا في إيمانهم الباطلَ والضَّلال، فهو تعالى يُؤمِّنُهم وهم يُؤمنونَ بغيره، وذلك مُنتهى القبحِ والشَّناعة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

المشركونَ يُضيفون إلى الإيمان بالباطل الكُفرَ بنعمِ الله

(الواو) في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ تعطفُ ما بعدَها على جملة: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾، ما يعني أنّها تقعُ في حيّز الاستفهام القاصدِ إلى الإنكار عليهم وتوبيخِهم؛ لأنَّهم لم يكتفوا بعبادة الأصنام من دون اللّٰه، وإنَّما أضافوا إليها جحودَ نِعَمِه، وعَدمَ شكرِه عليها، مع كثرتها وعظمتِها، وعَجْزِ آلهتهم عن الإنعام بمثلها، أوْ بما هو قريبٌ منها، وقد أفادَ العطفُ تصويرَ شدَّةِ الجُحود، فهم يُؤمنون بالباطل ويكفرونَ بنعمة اللّٰه، فقد عطفَ الضدَّ على الضدِّ للتوكيد، ولبيانِ أنَّهم لم يَخلطوا الإيمانَ بالباطل بالإيمانِ باللّٰهِ وشُكر نعمِه، بل جحَدوا تلك النِّعَم وكَفروا بها.

معنى الباء في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ﴾:

المشركونَ يَكفرونَ بالنِّعَم المباشِرة وغيرِ المباشِرة

(الباء) حرفُ جرّ يفيدُ الإلصاق، وفي التعبير به دلالةٌ على أنّ مُشركي مكّة وغيرَهم يكفرونَ بنِعَم اللّٰه على الرغم من التصاقِها بهم، وتمتُّعِهم بها بصورةٍ مباشرة، وأنَّهم حريصونَ على الكفر بالنِّعَم ملتصقٌ كفرُهم بها التصاقًا عميقًا، ويمكن أنْ تكونَ الباءُ

للتعدية، ما يعني أنَّهم لم يكتفوا بالباطل، وإنّما تجاوزوه إلى كُفران النّعَم وجحودِها، وهو أمرٌ في غاية الاستغرابِ والعجَب، وإنَّما التصقَ كفرُهم بالنِّعمة دون الله تعالى؛ لأنَّ السّياق يتحدّثُ عن نعمةِ (الأمن) التي التصقَتْ بهم دونَ مِن سواهم، فقابلوا تلك النِّعمة بالتصاقِ إيمانهم بالباطل والتصاقِ كُفرهم بالنِّعمة دونَ المُنعِم.

نكتةُ إفرادِ النّعمة:

كـلُّ نـعـمـةٍ من نِعَم الله تعالى تـسـتـحـقُّ أنْ يُـشـكـرَ عليها ويُحمَدَ لأجلها

جاءَ النظم الكريم بكلمة (نِعْمَةِ) مفردةً مصدرًا الصّادقَ بالواحدِ والجمع في قوله تعالى: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾؛ للدلالةِ على أنَّ كلَّ نعمةٍ من نعم الله تعالى تستحقُّ أن يُشكر ويُحمَدَ لأجلها، لا أنْ يُجحَدَ ويُكفر، ما يعني أنَّ كلَّ نِعَمِهِ عظيمةٌ، وأنّ أقلَّ نعمةٍ منها لا يمكن لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلها، يقول ابن عاشور: "والمُرادُ بنعمة الله: الجِنْسُ الَّذي مِنْهُ إنْجاؤُهُمْ مِنَ الغَرَقِ، وما عَداهُ مِنَ النِّعَمِ المَحْسوسَةِ المَعْروفَةِ، ومِنَ النِّعَمِ الخَفيَّةِ الَّتي لَوْ تَأمَّلوا لَأدْرَكوا عِظَمَها، ومِنْها نِعْمَةُ الرِّسالَةِ المُحَمَّديَّةِ"[1].

دلالة إضافة النّعمة إلى اسم الجلالة:

مَنْ يُنعم ويَجود يَستحقُّ العبادةَ والسُّجود

في إضافة (نِعْمَةِ) إلى اسم الجلالة العَلَم من قوله تعالى: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ تعظيمٌ للنّعمة وتفخيمٌ لها، وأوثر التعبيرُ بالاسم الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي يكثرُ التعبير به في مواضعِ التَّأْليه والتَّعْظيم؛ للدلالة على أنّ مَنْ أنعمَ بالإنجاء من أخطار البحار، وأنعمَ بتحريم البراري والأمصار، وغيرها من النِّعَم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، لَجَديرٌ بأن يكون الإلهَ المعبودَ، المخصوصَ بالتأليه والسُّجود، لأنه وحده صاحبُ الكرم والجود، ويمكنُ القولُ بأنَّ هذه الإضافة هي محطُّ الإنكار والتعجيب، فهم لم يكفُروا بمُطلَقِ النّعَم، بل خصّوا الكفرانَ بنعمةِ الله لكراهتهم للحقِّ وإذعانِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 34.

بالباطل، وفي إضافةِ النّعمة إلى الله إضافةً عهديّةً ما يرجّح إرادةَ الإسلام بها، لأنّه نعمة الله العظيمة التي لا تُعادلُها أيّةُ نِعمة، فيكونُ في النِّعمة استعارةٌ تصريحيّةٌ حيثُ شبّه الإسلامَ بالنِّعمة بجامع حصولِ النّجاة والخير لمَن حصل عليهما.

بلاغة المقابلة في الآية:

اشتملَ قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ على تقابلٍ بين (الباطل) المستعارِ للصنم و(نعمة الله) المستعارةِ للإسلام، وبين (الإيمان والتصديق) و(الكفر والجحود)، للدلالةِ على أنَّ ذلك منتهى القبحِ والشَّناعة، إذ لم يدخلِ الإيمان بالحقِّ في قلوبهم، بل ساروا في تكذيبِ الإسلام والردِّ عليه، فجمَعوا بين أعلى درجات الشَّقاء، وهما: افتراءُ الباطل على الله تعالى بجعلِ الأصنام آلهةً، وتكذيبِ الدّين الحقِّ لمّا جاءهم بجحدِ رسالةِ الإسلام والردِّ عليها.

منتهى القبح الجمع بين الإيمان بالباطل والكفر بالإسلام

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قَدّم النظمُ الجارَّ والمجرور على الفعل في قوله: ﴿وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ للاهتمام والقصر، إذ الأصلُ أنْ يقالَ: (يكفرونَ بنعمة الله)؟ لإظهارِ حرصِهم على كُفران نِعَم الله وعدمِ شُكرِها، ولإظهارِ كمالِ شناعةِ ما فعلوا، ولإبرازِ فظاعته وقُبْحِه، فمِن شدَّةِ جُحودهم أنَّهم قصروا إيمانَهم على الباطل، ولم يَخْلِطوا معَه شيئًا من الحقِّ كما سلف، وأنَّهم قصَروا أيضًا كُفرهم على نعمةِ الله تعالى دونَ غيرها، فلم يكفروا بأيّةِ نعمةٍ سوى نعمةِ الله؛ تصويرًا لشدّةِ كُفرهم وعظيمِ جحودهم.

التشنيعُ بكُفران النِّعَم وتقبيحُ فعلِه

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

أوثر التعبيرُ بصيغة المضارع: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾؛ لدلالتِه على تجدُّد كُفرهم بنِعَم الله عليهم، وإصرارِهم على جحودها، كلّما تجدّدَ اختصاصُهم بها، ممّا يثيرُ العجبَ والدَّهشة، واختارَ مادّةَ الكفر؛

لأنَّها تشكّلُ (طباقًا) مع مادّةِ الإيمان في قوله ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وبذلك يكونونَ قد جمعوا بينَ ضدَّينِ في العملِ المنافي للحقيقة: فإنَّهم آمنوا بالباطل مع أنَّه مجرّدُ وهمٍ، وكفروا بالنِّعمة مع أنّها حقٌّ وثابتٌ، فهم قد جمعوا بين فعلينِ وضعوهما في غير موضعِهما؛ إذ حقُّ الباطل أن يُجحَدَ وحقُّ الثابتِ أنْ يُعترَف به ويُشكَر، ممّا يدلُّ على أنَّهم غادروا الحكمةَ في أفعالهم، ووضعوها في غيرِ مواطنِها الصَّحيحة، ومن سُلِب الحكمةَ وحُسْنَ التصرّف فقد سُلِب خيرًا كثيرًا.

توجيهُ التشابه بين التعبير هنا وفي سورة النَّحل:

عبَّر النظمُ عن إنكارِ مقابلةِ الكافرين نعمَ الله عليهم بالشّرك والجحود في سورة العنكبوت بقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، وفي سورة النَّحل بقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: 72]، والاختلافُ التعبيريّ بينهما يأتي في أمرين، هما – في سورة النحل –: كتابةُ كلمة (نِعْمَتِ) بالتاءِ المفتوحة، والتعبيرُ بضمير الغائب ﴿هُمْ﴾ [النحل: 72].

التعبيرُ عند كُفران النّعَم بأسلوب الغيبة مناسبٌ للجاحدين تمامَ المناسبة

أمّا **الأمرُ الأوّلُ**: فالسرُّ في كتابة كلمة (نِعْمَتِ) بالتاء المفتوحة في سورة النَّحل أنّ الكلمة تأتي في سياقِ الامتنان بنِعَم كثيرة، إذ يقولُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: 72]، فناسبَ كتابتُها بالتاء المفتوحةِ؛ للدّلالة على تعدُّد النِّعَم وكثرتها، أما في سورة العنكبوت فالكلمة تأتي في سياقِ الحديث عن جحودِ الكافرينَ نعمةَ الأمن ما يستلزمُ كتابتَها بالتاءِ المربوطة؛ للدّلالة على اختصاصِهم بها دون غيرهم، والله أعلم.

وأمّا **الأمر الثاني**: فالسرُّ في التعبير بضمير الغائب أنَّ في سورة النّحل اتَّصل التعبير بالخطاب في قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النحل: 72]، ثمَّ عاد إلَى الغَيْبَة مُلتفتًا فقالَ: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: 72]، فلا بُدَّ من تَقْييده بهم؛ لِئَلّا تَلْتَبِس الغَيْبَة بِالخِطابِ والتّاء بِالياء، وما في سورة العنكبوت اتَّصل بآياتٍ استمرَّتْ على الغَيْبَة فيها كلِّها فلم يحْتَج إلَى تَقْييدِه بالضمير[1]، يضافُ إلى ذلك أنّ الانتقالَ من حال الخطابِ عند الحديث عن التمتُّع بنعَم الله تعالى إلى حال الغَيْبةِ، الدالّ على الاستخفافِ بهم واحتقارِ شأنهم عند الحديث عن كُفرانها؛ مناسبٌ للجاحدين تمامَ المناسبة.

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 162.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»